مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 11 العدد: 03 السنة 2019 رقم العدد التسلسلي 20

تاريخ الإرسال: 2018/10/10 تاريخ القبول:2019/06/18

جدلية الرفض والقبول في النص الشعري الجزائري بعد الاستقلال

Dialectic of refusal and acceptance of the Algerian poetry after independence

ميهوب جعيرن
جامعة عمار ثليجي الأغواط كلية الآداب واللغات قسم اللغة العربية وآدابها
mihoubjirane@gmail.com

ملخص البحث

واكب الشعر العربي الجزائري حركة المجتمع بعد الاستقلال فكان للشعراء مواقف متباينة من حركة التأسيس للنظام الجديد، فمنهم الرافض المندد للسياسة التي وضعها الحكام الجدد ، ومنهم المؤيد المساند لهذه السياسة الجديدة ، ولقد تجلت هذه الأفكار في نصوص الشعر التي عبرت عن التوجهات المختلفة لشرائح المجتمع الجزائري من فكرة تأسيس نظام جديد سياسي واقتصادي واجتماعي ، وكانت هذه التوجهات نابعة من تأثير إيديولوجي خاصة فما وحدته الثورة من أجل مشروع مشترك ظهرت بوادر خلافه مع الاستقلال. تلك هي الفكرة المحورية التي دارت حولها مجالات البحث في هذا المقال.

الكلمات المفتاحية: النص الشعري، الاستقلال، الرفض، التحوّل، الاغتراب، الغياب، القبول، المساندة ، التأييد، التشكل، الإيدولوجيا.

Abstract

The Arab-Algerian poetry was accompanied by the movement of society after independence. The poets had different positions from the movement of the Building of the new regime. Some of them reject the politics established by the new rulers, including the supporter of this new politicts. The idea of establishing a new political, economic and social system, and these trends stemmed from a special ideological influence, what united the revolution within the framework of a common theme that

emerged as a sign of disagreement with independence. This is the central idea that has been discussed in this article.
key words: poetry. Movement. Independence. new regime. Ideological.

مقـــــدمة:

المتتبع للنصوص الشعرية في مرحلة ما بعد الاستقلال، يبدو له الأساس الذي ترسخ واضح المعالم في الخطاب الشعري الجزائري، فكان السعي لتكريس الانتماء وتحديد التوجهات التي تتلاءم مع مختلف المعطيات التي أنتجت الخط السياسي والاجتماعي والإيديولوجي، تلك المعطيات كانت حاضرة بقوة في النصوص الشعرية، إذ تعتبر نتائج منطقية لفكر أنتجته عقلية ثورية، اختارت نهجا سياسيا واجتماعيا معينا، تظهر فيه الضِّدية لعدو الأمس واليوم. فحقيقة الإستقلال واسترجاع السيادة لها أثرها في التوجه الشعري الجديد، الذي أضفى طابعا خاصا على النص في المرحلة الراهنة. لذا سنحاول أن نتتبع مظاهر التعبير عن امتلاك الذات الشعرية لزمام أمرها، حيث تجسدت الدلالات الشعرية في الشكل والمضمون.

فعلى ضوء هذه التغيرات الحاصلة سياسيا واجتماعيا ، كان للشعراء مواقف، وتوجهات قد أملتها قناعات فكرية إيديولوجية، إرتبط بها الشعراء والتزموا بخياراتها، فكان لإمتلاك المكان مظاهره في النص الشعري الجزائري الحديث، وكانت له تحولاته عن المفاهيم السّابقة، التي سادت في مرحلة الثورة والكفاح . فالواقع الجديد بعد الاستقلال فرض مفاهيم أخرى تتماشى والمرحلة الطارئة.

لقد شهدت هذه المرحلة (مرحلة الاستقلال) بداية تشكل وعي جديد، لأنّ الواقع الراهن اكتست خصوصيات جديدة شكلت الكثير من المفاهيم والقيم المتصلة بحياة الجزائري.هذا ما سنحاول تتبعة من خلال نماذج من شعر المرحلة، حيث نرصد هذه المفاهيم والقناعات الجديدة؛ التي شكلت وعي الشاعر الجزائري، استجابة للمرحلة وتعبيرا عن الواقع الماثل، والتحولات الجارية في مختلف مجالات الحياة .

1-تحوّل المفاهيم:

إنّ بداية التّحول التي شهدها المجتمع الجزائري في عمومه، كانت مع إرساء النظام السياسي لقواعد تسيير الدولة الجزائرية بعد الاستقلال،"ولعل الدّارس للنص الشعري الجزائري في مرحلة ما بعد الاستقلال ، يلاحظ التّباين الحاصل جراء الصّراع الذي تجلى في النصوص المنتجة التي عبرت "عن حركية المجتمع الفكرية والإيديولوجية والسّياسية."[1] إنّ منطلقات بناء الدولة وفق معايير وقواعد وإيديولوجيا معينة، أذكت هذا الصراع وأحدثت الفرقة والاختلاف بين مؤيد ومعارض لتلك التوجهات، فحلم الوطن لم تتشكل ملامحه كما خطط لها الكثير ، وبالتالي كانت الصدمة، وكانت بداية تحول المفهوم ، فقد حدث نوع من الإنفصال بين الذات وواقع الحال، هذا الإنفصال تبلور في نصوص الشعر، وعكس توجهات الشعراء حول المفاهيم الجديدة الطارئة.

إنّ الملفت للإنتباه، أثناء تتبع أشعار هذه المرحلة، هو التحول الذي حدث عند هذا الجيل من الشعراء، "فقد غلبت عليه المواقف السياسية بشكل سافر، فاغرق بكامله في الهم السّياسي المؤدلج"[2]. لذلك صوروا خارطة الوطن وفق قناعاتهم وولائهم الفكري والسياسي، فحددوا مواقفهم تبعا لذلك، فصارت الممارسات والمواقف مقترنة بمفهوم الوطن الجديد، حسب إيمان وثقافة فكرية معينة. لكن لم يكن هؤلاء على المِلّة نفسها، على الرغم من إنتمائهم إلى رقعة جغرافية واحدة.

هذا الواقع الجديد تردد صداه في الشعر الجزائري الحديث، إبان تأسيس الدولة الحديثة، بعد أن وضعت الحرب أوزارها وتجند الجزائريون لمرحلة جديدة هي مرحلة البناء والتشييد الوطني، لكن تسيير المرحلة ، واختيار النموذج السياسي والاقتصادي، أظهرا اختلافا في القناعات ، وشكلا بوادر الخلاف في هذه المرحلة.

تعددت النصوص الشعرية التي تبنت المفاهيم الجديدة وعبرت عن مواقفها من الواقع الطارئ والمفهوم المتحول ، بين جدلية القبول والمساندة والمرافقة، وبين الرفض والتنديد والخيبة. هي جدلية جسدها الشعراء في نصوصهم، وعبروا عنها من جراء

قناعاتهم وإنتماءاتهم الإيديولوجية والفكرية السياسية. شأنهم شأن المثقفين في عموم الشعب وفي مختلف مناصبهم ومسؤولياتهم ومراكزهم .

هذه المفاهيم الجديدة عبر عنها الشعراء بالتصريح تارة و بالتلميح تارة أخرى، تحيل دلالاتها إلى مدى تألم الذات، بل قد تستغرق وتُفْرِط في نزعة التّحول الحاصل الذي خالف المتوقع عند لفيف هام من الجزائريين، حيث الإشارة واضحة في نص سليمان جوادي عن التحول والصدمة:[3]

وطني يا مأوى الشك

ويا مأوى الإيمان

ويا مأوى الإلحاد

ستظل هجينا ما دامت فيك الأضداد

هذه اللغة الشعرية تبوح بمعان جديد متحولة، فهي نتاج إفرازات الضغط الذي شعرت به الذات من جراء مصير المفاهيم الجديدة المشكلة لفكرة الوطن،لأنّ "المكان عنصر ضاغط على الذات ..مُصيّغ لها."[4] فكلما تحول مزاجها تسعى إلى تشكيله وفق منطلقاتها ، فيكون التحول الفعلي في فكرة الإنتماء ودلالاته الجديدة تبعا لذلك التغير، هذا ما نرصده من دلالات واضحة، حول علاقة الذات بالوطن عند الشاعر سليمان جوادي، فالوطن الحلم قد تبخر في لحظة الواقع، صار مأوى الشك و موطن متناقضات، وللغة الشعرية هنا دلالات قبلية، وأخرى بعدية، تفهم من السّياق، فهي تحيل إلى الماضي رمز الوحدة، وإلى الحاضر زمن التفرقة والصراع بين الأضداد، فهذا الحال جعل البناء الوطني رهينة بين المتناقضات، فالوطن سيظل هجينا متناقضا يبحث عن الهوية، ما دامت تتصارعه أفكار متناقضة.

إذن، الهوية المنشودة ضاعت قيّمها مع تناقض مواقف وأفكار أبناء الوطن الواحد، الذين تفرقت بهم الأهواء وتتعددت مشارب تأثرهم وفلسفاتهم. فروح الوحدة المنشودة تظل غائبة ما بقيت الأفكار هجينا غير أصيلة، تفتقد إلى الانسجام.

أمّا مصطفى الغماري فيثبت فكرة الإنقسام الحاصل وتحول النظرة إلى فضاءات الوطن بتحول الإيديولوجيا، على اعتبار الشاعر وليد طبقة إجتماعية، وحصيلة

عناصر من المكونات الفكرية، فقد عكس الواقع الذي تشعر به الذات ومن خلالها شعور ال(نحن)– ليس كل ال(نحن)بالطبع– بل فقط من يتوافق مع الرؤية، يقول:[5]

حمر وقد برئ (الماركس)منهم

سمر وقد رفضتهم الصحراء

يزجون بالكلم الصفيق كتائبا ..وهم على ريح النضال هباء .

هذا المعنى يمثل رؤية أخرى، متحولة حول درجة الإنتماء للمكان من خلال المبادئ والفلسفات التي يتبناها الشاعر في معارضته، لمن أرادوا تحويل القيّم من الأصيل إلى المستورد حسب رؤيته و قناعته. فإذا كان تحرر الوطن مكسبا تحقق جراء كفاح مرير، إلا ان الخصومة بين أبنائه قد جعلت الصراع يحتدم حول الانتمائية، والفصل في البناء السياسي والفكري، بين أفكار أصيلة؛ يدعي أصحابها أنها أصل المكان والإنسان، وأفكار مستوردة تَدّعي التجديد والإنفتاح على النماذج الحضارية المتطورة من منظور آخر مخالف.

فالمعادلة وجودية، بين من له الحق في السيطرة والتوجيه والقيادة ورسم معالم السياسة في مختلف توجهات النظام الوطني الجديد. فالشاعر يثبت فكرة الإنقسام والتذبذب السائدة حول الهوية والإنتماء الإيديولوجي الذي أفرزته مرحلة ما بعد الاستقلال، حيث نتبيّن رسم معالم هوية الوطن بهذا الشكل المتناقض ، نتبيّن القلق والتوجس على المصير الآني والمستقبل.هذا يحيل إلى دلالة مفادها، أنّ ساحة الوطن صارت مسرحا للصراعات السياسية والأفكار الإيديولوجية، فهو ضياع آخر، وبطرائق أخرى، ولدت خيبة نفسية لدى الذات الحالمة بمصير آخر.

في هذه الإحالة، يبدو التناقض ماثلا والتنديد واضحا، بين شرائح المجتمع الذي وحدته في فترة تاريخية؛ مرحلة الكفاح المسلح، لكن طفى الصراع على السّطح ، بعد تعدد القناعات في شكل النظام السياسي والإقتصادي للبلد بعد الاستقلال.

هذا ما يجسده معنى النص ، بحيث لا يخلو الخطاب من نبرة الإستهزاء والإستخفاف ممن راودتهم أحلام السير بالوطن وفق توجهات غريبة عن أصالة الجزائر. تلك نبرة شعرية لا تخلو من الاستخفاف من توجهات هؤلاء، الذين رفضهم الوطن الأصيل،

لأنّهم لا يمثلون الحقيقة الثقافية والوطنية التي بني عليها وطن الشاعر، وقامت عليها أفكاره الأصيلة. طبعا يتشارك الشاعر في هذا مع شريحة واسعة ممن يؤمنون بطرحه."هذا يجسد إشكالية الصراع الثقافي في مرحلة السبعينات في انعكاس الأفكار الإيديولوجية للتيارات السياسية المتصارعة."[6]

لقد كانت فكرة مناقضة ومعارضة التأسيس الجديد، قناعة مشتركة بين مجموعة من الشعراء، تجلت في نصوصهم لهجة الرفض المطلق، مثل قول الشاعر أبو القاسم خمار، الذي عبر عن التحول بلهجة حادة، رافضا الواقع وهاربا منه:[7]

أعدوني إلى المنفى
أعدوني إلى الأسر
لأحيا ماضي الأحلام
في سري وفي جهري
لأحيا خيـالات
من البارود والحبر
بوهم التائه النائي
بروح المبعد الحر

هو موقف يجسد رفضا للواقع، بسبب صدمة الحاضر، فالذات تدعو إلى الإنفصال ، تفضل الإغتراب والغياب والعودة إلى المنفى بعيدا عن الوطن الأم ، عودة إلى الوطن المتخيل ، عودة إلى الوطن الحلم، وسبب الرجعة يعود إلى عوائق حرمته من تحقيق الحلم، فقد ترقب طويلا زوال ليل المستعمر ليعود إلى وطنه يتنسم فيه عبق الحرية، لكن هذا الحلم الذي طالما رسم له في مخيلته الصورة الجميلة؛ التي تتآلف فيها جميع المعطيات ليهنأ في النهاية بحياة مستقرة تريحه من معاناة المنفى ، وتعيد التوازن للذات المضطربة بسبب النوازل التي حلت بالوطن الأصل. لم يتحقق كما كما كان مخطط له وفق معطايات حملتها تفاصيل الذات في زمن الصراع مع الآخر.

إنّ الصدمة دفعته إلى استعمال خطاب مبطن بلهجة هجائية، منددة بواقع صار مختلف عن المكان الحلم ووطن الجميع ، فالأحلام صارت سرابا، بعدما شعر بأن الوطن في الواقع مختلف عما كان يعتقد أن يكون .

لذلك أضحى العيش في المنفى، خارج حدود المكان الأليف، أهون من العيش وسط واقع فاسد لا يطاق ولا يحتمل، حسب ما يتضح من لغة الرفض التي استعملها الشاعر، ويبقى ذلك رأي يعبر عن وجهة نظر لم تقتنع بما آل إليه واقع الحال .

إذن، هو رسم آخر لصورة الوطن الواقع المختلف عن المكان الحلم، لأنّ "افتقاد الوطن على الصعيد (الواقعي بأيّ شكل من الأشكال) يجعله يعيش داخل الشاعر."[8] حيث يحِلّ بكيانه ويرتحل، فالذات من خلال النفور من المكان الأصل والمكان الوطن، تسجل موقفا رافضا لواقع جديد، انحرفت معالمه الوطنية عما كانت تنتظره في أفقها المنظور، هذا الموقف يجسد التحول في النظرة إلى واقع المكان والإرتباط به.

هذه المواقف وهذه التحولات الحاصلة، هي في الحقيقة نتاج خيبة بعد الأحداث الجسام التي عرفتها الجزائر، بحيث كانت الثورة على المستعمر هي الكلمة السحرية، التي وحدت الجزائريين بمختلف أطيافهم، لكن بعد الاستقلال حدث التحول وتصدعت الوحدة، وتجلت في اختلاف المفاهيم المنظمة للوطن الجديد.

2- الخيبــة :

تتجلى من خلال الواقع الجديد الذي اصطدم به الشاعر، واقع تلاشت معه صورة المجتمع التي رسمها الشاعر للوطن بعد الاستقلال ، حيث أُلِفَت الذات حرجا في التأقلم، وصعوبة في استيعاب، المجال الجديد، هنا باشرت البحث عن أساليب أخرى للتعبير من خلال النص الشعري.

تبعا للمعطيات الجديدة رسم الشاعر الجزائري صورة أخرى للوطن، صورة مغايرة لما صار عليه الواقع المعيش، صورة أظهر فيها بعض الشعراء خيبة أمل واضحة من واقع المكان الآني، هذا المفهوم الجديد، هو نتيجة عوامل وظروف تفاعلت فصنعت واقعا متجاوزا لما كان مأمولا ومنتظرا.

لأنّ "كل مكان يتحدد جغرافياً، ولكنه يتزيا سياسياً، مثلما يتأطر إيديولوجياً، وفي الآن عينه، وفي الطرف الآخر، يتبدى رمزياً في الفن والأدب، وهو يختلف باختلاف المتحدث عنه، أو الزعم أنه الناطق باسمه، أو من يمثله، فالمكان، كما كان يمتد على مرأى النظر، يبقى هكذا، سوى أن الصورة المأخوذة عنه، على الصعيد الجمالي أوالقيمي أو الدلالي مغايراً.ما أكثر أمكنة المكان، ما أقل مكان الأمكنة، ما أوسع المكان، ما أرحبه، ما أضيقه، ما أعمقه، ما أبأسه، ما أبلاه، ما أقومه....الخ، ذلك هو المكان، ولكنه في الحالة هذه، مخلوق فني أو أدبي!"[9]

هذه الحربائية التي يتخذها المكان تجعله وعاء يستوعب كل المعاني، وتنصهر فيه كل الإنفعالات،ومن ثم كانت كل الإنزياحات متاحة في عالم الشعر ومخيلة الشاعر. هذا الذي دفع الشاعر الجزائري إلى اتخاذ المكان الوطن موضوعا مهما في نصوصه ، فبغض النظر عن جمالياته الفنية ، إعتبره رسالة تحمل هما إلى المتلقى وتأثر في وعيه وسلوكه.

إنّ وصف الوطن كمكان، حدوده تتماهى مع حدود الذات، هي تقنية يتجاوز بها الشاعر واقعه، فوصف تفاصيله البصرية لا تقف عند الحيز الشكلي والجغرافي، بل تتعداه إلى إحساس الذات بواقعها، ذاك الواقع قد يغري بالطمأنينة والراحة ، وقد يكون مجلبة تعاسة، ومدعاة فرار إلى الواقع الحلم، فالشاعر احمد حمدي، أسقط واقعا نفسيا، على واقع سياسي ، تتكشف فيه الرؤيا بشكل رمزي من الصورة اللّغوية التي قصدها، ولنقرأ قوله:[10]

مازلت أجوب الشوارع
ضيق شارع الاستقلال
فسيحة ساحة الشهداء

في هذه الصورة الشعرية، يشكل الوقوف على المكان، صورة نفسية منعكسة على الذات الشاعرة، فالشاعر في عملية بحث متواصلة عن مكان الاستقرار (مازلت أجوب...) إنه يبحث عن الوطن الحلم، لكن الصدمة وخيبة الأمل يجسدها من خلال وصف المكان (ضيق شارع الاستقلال)، فاللغة تحمل التناقض في معانيها، فمعنى

الضيق لا ينسجم مع مفهوم الاستقلال والحرية،والجمع بينهما في السياق يحمل إدانة واضحة لواقع حاصل شوّه فكرة مأمولة، فضيق المكان هو في الأصل تضييق على الحريات وكبت للأفكار.

إذن الوصف لا يهدف إلى تصوير الحيز وواقع المكان الماثل بصريا، وإنما اتّخذ المكان وسيلة للتعبير عن خيبة الأمل أصابت الذات بعد أن استقل الوطن، فعوض الفسحة واتساع مجال الحريات، حدث العكس، فكان التضييق والتشدد، لكن في المقابل (فسيحة ساحة الشهداء)لأنّ حجم التضحية كان جسيما، غير أنّ حجم المكان كان ضيقا، فحلم الحرية والعيش السعيد ، كان ثمنه جسيما، لكن المقابل في رؤية أحمد حمدي، لم يكن في مستوى التضحية ، لذا بدأ شارع الاستقلال ضيقا وساحة الشهداء واسعة ، فدلالة هذا التقابل في المكان الوطن، تعني خيبة أمل الشاعر عند اصطدامه بواقع لم يكن منتظرا قياسا بجسامة التضحية في سبيله.

إذن، هي مفارقة بطلها الوطن الحلم، بين ماض حمل أحلام الحرية الفسيحة أرجاؤها، وبين حاضر مُخيّب ضاقت فيه الحركة وكبتت فيه الأنفاس .

في موقف آخر نلفي نموذج من المونولوغ الشعري، لأبي القاسم سعد الله، وكأنه يهذي من شدة وقع الصدمة ، صدمة ما آل إليه واقع الوطن، يقول:[11]

أأنت الذي كنت تحلم بالمستحيل
وتصنع للشمش حبل الوصال
وتكتب في وجنات النجوم
حكايات عشقك
وتحرق قلبك بالنبضات المضيئة؟
وكنت تقول : سأفتح باب السماء
وأبدع جنات عدن
تسمى وطن

يجسد سعد الله في هذا المعنى، مفارقة بين مرحلتين مختلفتين تجاه الوطن، بين واقع كان مأمولا ومتوقعا، وواقع آخر صار فيه الحلم سرابا يبابا، فالمعطيات التي بني

عليها الوعي الإجتماعي الجزائري، كانت تتوقع نتائج النعيم في وطن النعيم، وذلك مقارنة بالتضحيات التي بذلت من أجل الوطن المكان، من أجل الشرف، من أجل الكرامة، من أجل العيش الهني، هي أهداف وغايات كانت لتتحقق؛ لو بقي التهّوج الشعبي على حاله، كلمة موحدة، هدف مشترك، من أجل الوطن، من أجل مكان الأجداد وميراثهم، فالوطن يزخر بثروات عبر جغرافيته الممتدة وعبر طاقاته الفذة المتمثلة في إرادة أبنائه، التي اثبتت في ماض قريب قدرتها على النجاح.

لكن كل هذا كان حلما مستحيلا حسب سعدالله، الذي اصطدم بواقع، صار فيه المكان رهينة فئة لا توافقه توجهاتها، وبالتالي صارت الأحلام أوهاما، كما يقول مؤكدا:[12]

أأنت الذي كنت تركب وهمك
وتجهد آلاف خيل وخيل
وراء سراب يباب
وتركض وراء سحابة صيف

في هذا المعنى الثاني، تأكيد على حالة الهذيان التي آل اليها حال الذات الشاعرة من شدة الصدمة في المكان، وهنا تتحول دلالة الوطن وشعريته، من المحسوس الملموس، إلى سلوكات وتصرفات تجد لها ردة فعل شعرية ممن يعيشون في المكان الوطن، ويعكسون طبيعة الوعي والفكر الاجتماعي، وإن كنّا لا نعمم المفهوم والرؤية بشكل شمولي على كل من يعيشون في المكان، ويتفاعلون مع واقع المرحلة، لانّ" النص الشعري يرتبط بالعالم ويتجاوزه في آن، يحيل إلى الواقع ويحيل إلى الممكن ايضا."[13]

أمّا محمد أبو القاسم خمار فقد أكّد بطريقته المفارقة التي لمسناها عند سعد الله و يعترف شعريا تحت وطأة الواقع الجديد:[14]

أنا كان لي وطن
كان لي
ولكنه اليوم ضاع

وإنسانه غاب قبل الوداع
وقبل تحرر أطفاله من أسار الرضاع

يؤكد النص انفصالا بين الذات والوطن الواقع، اتصال وانفصال في آن ذاته، فكلما اتصلت الذات بواقعها زادت رغبة الانفصال عنه، لأنّ الإقرار بالضياع وبصيغة التأكيد، ينبأ على دلالة نفسية تنتابها خيبة الأمل من ضياع الوطن الحلم ، فصدمة الواقع جردت المكان من وطنيته، وجعلت الذات تشعر بالضياع، ضياع من نفي ذاتيا من اوطنه وسلبت مقوماته وتلاشت أحلامه ، فالوطن ضاع قبل الأوان، قبل أن يتمتع إنسانه بلذة استقلاله.

لقد سرقت أحلام أطفاله فلم يهنئوا بما ضحى من أجله الأباء والأجداد ، فالشاعر صريع تحت وقع الصدمة إلى درجة التفريط الكامل في هوية الوطن الذي وقف عاجزا في الدفاع عنه من مستلبيه الجدد .

لكن الفقد في هذه الحالة ليس فقد واستلاب التراب، وإنما هو فقد للمقومات وفقد للحرية التي كانت من أجلها التضحية،وانفصال عن الذات الوطنية فلم يبق للشاعر سوى ذكر ماض شَعَر فيه بالعيش للوطن ومن أجله ، وجاء يوم حاضر فقد الوطن وضاع، ومن ثم ضاعت الهوية وكانت خيبة الأمل.

في صورة أخرى تظهر الذات الشاعرة منكسرة محبطة من سقوط حلم الوطن، يقول أحمد الطيب معاش:[15]

أيا و طنا بعض أبنائه... أرادوا له شر مستقبل
لأجلك بالأمس خاض الوغى ...ومات الألوف لكي تعتلي

التنديد المباشر بمن ساروا بحلم الوطن إلى غاية يأباها، غاية لا تخلو من قناعات لا تتفق والضمير الجمعي، هذا إقرار بأن المنحى الذي سار فيه البعض من خلال استحواذهم على مقومات التسيير ، منحى غير مرغوب ، لأنّ الوجهة غير متفق عليها من الجميع ، بل السبيل المختار من طرف البعض في اعتقاد الشاعر، سبيل خاطئ قد يؤدي إلى شر مستقبل ، هذه فكرة تنديد الذات الوطنية بواقع ماثل مفروض، وخيبة أملها عندما تبددت أحلامها في واقع مكاني مختلف عن المأمول.

3- الإغتــراب:

عرفت هذه الظاهرة في الشعر العربي الحديث والمعاصر، وتجلت في نصوص الشعراء الذين عانوا من المنفى ، سواء نتيجة البعد عن الوطن والإحساس بالوحشة تجاهه، أو معاناة وغربة داخل الوطن حين ما يشعر الشاعر ببعد الذات عن الواقع، ونفورها منه، فيتلمس له وطنا بديلا قد يعيشه في أحلام الشعر ومفاهيم الفلسفة، والحالة الثانية كما يبدو لنا أخطر لأن الإغتراب النفسي ، قد يولد اليأس، ويولد الرغبة حتى في هدم المكان، والتخلي عن روح الاتصال به ، فيكون الإنقطاع والإنفصال، هذه المعاني قد نعثر على دلالات لها في بعض نصوص الشعر الجزائري الحديث الذي أنتج بعد الاستقلال، فحينما اصطدم هؤلاء الشعراء بواقع الوطن لم يكن مثلما تصوروه في مراحل سابقة، أي انّه لم يوائم تطلعات الذات ولم يتناسب مع أهوائها،فكان الشعور بالاغتراب، أو الغياب الاضطراري.من ذلك نسجل شجب أبو القاسم خمار للحياة في ضوضاء المكان:[16]

لكنني في مدن الأضواء
أعيش داخل الغيوم
في الطـابق الأرضـي

إنّ تعابير الذات القلقة المتوترة من وضع المكان تحيل إلى إنزياح في لغة الشاعر، مفاده أنّ النفس راغبة عن الوطن زاهدة في التعلق به، لأنّ فكرة الوطن النفسي الذي لا وضوح فيها، بل تشوبها ضبابية غموض، تتصارع فيها الأضداد إلى درجة العتمة الحياتية، فالذات ضائعة القصد، منخورة القوى، تعيش في حضيض المكان ، والدلالة هنا تشير إلى أنّ المدينة كمكان للتحضر والتمدن هي مدعاة اغتراب نفسي ، لأن الذات أحست بفقد المقومات الأساسية التي ضاعت في ضوضاء المدينة، وأفقدت الوطن مقوماته.

أما علي ملاحي، فغربته عن الوطن وفي الوطن، هي بفعل فاعل قد حدده في قوله:[17]

أحب المجيء إليك فيمنعني التافهون

أحب الجلوس إليك ويسكتني المارقون
كدروا مؤق الفجر يا موطني

فالذات الشاعرة تعاني من عقبات التّافهين والمارقين، لأنّ في ناموس حب الوطن لا وطن لهؤلاء، فالتافه من لا مبدآ له ولا شخصية له، بل لا برنامج حياتي له ، فالدلالة هنا تعني إنّ الوطن قد تنفذ فيه من لا يستحقون المكانة، سواء من المارقين أو التافهين لأنهم لا يفقهون معنى الوطنية التي دفع الجزائري في سبيلها أغلى ما يملك ، إذن فالسيطرة على المكان هي التي أدت إلى الشعور بالإحباط والإحساس بالغربة. لهذا ندد الشاعر بمن صاروا عائق بيته وبين ووطنه، حيث حرموه حتى من حب الوطن، لأنّ لعنة هؤلاء تعدت الإنسان إلى لعنة المكان.

4- التأييد والمساندة:

خلافا للرؤية السالفة، المعارضة للبناء الجديد، تأتي النظرة الأخرى ، المهللة والمرافقة والمساندة الداعمة للمفاهيم الجديدة ، التي حددت معالم السياسة الكبرى لتسيير الوطن ورسمت اتجاهه، لذا كان الثّناء على ما حدث فعلا في الواقع،هذا ما رسخه الشعراء في بعض النماذج، تناغما وقبولا لما آل إليه حال البلاد والعباد بعد الاستقلال، ونحو ذلك ما نقرؤه في شعر محمد الأخضر السائحي:[18]

بلادي يمينا بأبطالنا ...بوحدتنا، وبآمالنا
بقادتنا ، بعمالنا ...بهذا النضال بهذا الجهاد
سنحمي سنفدي الجزائر
بحريتي باشتراكيتي...بمليون قبر هنا قبلتي
سأبذل يا وطني مهجتي ...لأرفع ذكرك في كل ناد

إذن، فالتحول الحاصل ليس دائما عكس التيار السائد والغالب سياسيا، وإنّما التحول في هذه الحال هو تحول موال لقوى رسمت معالم المكان بعد استقلاله و افتكاكه من الآخر ، فالذات الشاعرة أرادت احتواء كل الجهات الفاعلة في المكان من خلال الإيديولوجيا التي فرضها من سيطروا على مقاليد السلطة والحكم، وهذا المبدأ واضحة معالمه في دعوة الشاعر ويعني التسيير الاشتراكي لكل فعاليات المجتمع.

إن فكرة التحول في هذا الصدد تعني التحول من النضال بوسائل كانت ناجعة في فترات سابقة، إلى وسائل أخرى مناسبة تساهم في بناء المكان وتساعد على تطوره، وتحقق للذات الوطنية الاستقلال والتوازن والثبات ،فإن كان الشعب قد حقق بالسلاح والجهاد غايته، وكانت النتيجة الباهرة هي استقلال الوطن.

أمّا في واقع الحال فالنضال يتطلب وسائل أخرى تساهم في بناء وتشييد الوطن، والحفاظ على مكاسب السّلف الذي ضحى في سبيل حرية الوطن وتركه أمانة في أعناق الخلف. فالذات الجمعية تستعظم المسؤولية الثقيلة والرسالة المقدسة التي تتحمل وزرها وتتعهد بالذود عن مكتسبات السلف.

لترسيخ هذه المفاهيم وتأكدها يضيف الشاعر نفسه، مكرسا فكرة التحول الحاصل في مفهوم النضال ، والحفاظ على إرث السلف لكن بمفهوم ثوري وتثويري جديد، مفهوم الثورات الثلاث، الصناعية،الزراعية و الثقافية :[19]

انها ثورة شعب

للصناعة

للزراعة

ثورة الشعب إلى الشعب الجريح

ثورة الفكر إلى الفكر الصحيح

هذه متابعة للمفهوم الجديد المتحول تجاه العلاقة بالمكان الوطن، فالحياة تستمر كريمة بالتجنيد الشعبي للبناء والتشييد حسب الخط الاشتراكي الذي رسم خطوط النضال من خلال الثورة الزراعية وخدمة الأرض، ثم الثورة الصناعية وتأسيس قاعدة تكون فيها الأولوية للصناعة الوطنية، الثورة الثقافية وتعليم الإنسان وإخراجه من الأمية من خلال التعليم المجاني، هذه مبررات مقنعة للذات التي آمنت بهذا النهج ، واعتقدت بنجاحه.

لقد ترسخ هذا المفهوم الجديد في الأذهان والعقول فترسخ الوعي الوطني الذي يتغنى بمبادئ التحرر والاشتراكية ، فكرة جسد بعض من معانيها احمد حمدي في قصيدته "موجز الإخبار في حجم المسألة"سنة 1974:[20]

يكبر شكل الحلم في عيون فقراء وطني
تحترق المراحل
الحواجز
تنطلق الثورة من رصيف الشارع الأيسر

فكرة النص الشعري تؤكد على وطنية الواقع الذي كان حلما، فيرسخ فكرة الاتصال بين المكان والذات الوطنية التي تتخذ من الإيديولوجية وسيلة انقاذ ، حينما تربطها بحلم الفقراء في توفير حياة عادلة وفق المنطق المشاعي. ففي لفتة مباشرة يؤنسن الشاعر المكان، بلغة واقعية، حينما يذكر ان تباشير الحياة الجديدة تنطلق من رصيف الشارع الأيسر، إشارة إلى اليسار الاشتراكي، فهنا تتأقلم الذات مع الواقع الجديد إمّا قناعة أو تزلفا، تناصر منهجا معينا في التأسيس الجديد.

"فالشاعر يدمج بين دواخله وأحاسيسه وشعور الوطن، ويحاول ان يحمله رسالة ما ويجعله منفذا له...حتى يحافظ على الكيان الجماعي والذاتي للأمّة وكيانه هو. لأنه كلما بقي المكان بقي الشاعر ."[21] وكلما استمر الوطن استمر الكيان الكلي للأمة في الوطن، واستمرت الذات في جودها متلذذة بحياتها ومستمتعة بمصيرها، هذه المعادلة التلازمية يدركها الشاعر، ويسعى الى عدم الإخلال بتوازنها.

في السياق نفسه يول عبد العالي رزاقي في قصيدته (أغنية) حينما يشير إلى الوجهة الجديدة للتأسيس والثورة الجديدة :[22]

يا أيها الشعراء/ حولنا السفينة إلى ميناء جديد/
لغة المناجل والمعاول/ علمتنا كيف نحرث/ كيف نزرع/
كيف نحصد/ كيف نبني/ كيف نعلي/ كيف نصبح ثائرين/

نظام يقوم على ثورة الشعب في مجال البناء الوطني ، تستمد حصانها الإقتصادية من العمل، جراء تطبيق الثورة الزراعية في خدمة الأرض ، تحت الشعار المعروف ، "الأرض لمن يخدمها." هذه القناعة المتحولة من الفعل الثوري المسلح ، إلى فعل ثوري جديد، يعتمد على سواعد الشعب من أجل خدمة وطنه في المجالات المختلفة.

الصناعية والثقافية والإقتصادية .هذه هي أسس النظام المدعم من طرف الشعراء، المرافقين له والداعمين لتوجهاته .

الخاتمة:

خلاصة القول تفيد، بأن النص الشعري الجزائري جسد بشكل مباشر درجة الخلاف والاختلاف الذي ميز مرحلة ما بعد الاستقلال ، بحث تنافرت الأراء وظهر الصراع السياسي الذي تغذيه الإيدولوجيا التي أخفتها أحداث الثورة، بل وصل الصراع في بعض مراحله إلى درجة التصفية المادية، لأن أحقية قيادة مسيرة الاستقلال، ظهر لها أباء كُثُر، كل يدعي الشرعية سواء الثورية أو التاريخية، هذه الحقائق والأوضاع صورتها نصوص الشعر الجزائري وأشار أصحابها إلى تحول المفاهيم ، بل صار المجال الثقافي والأدبي مسرحا تتبارى فيه القناعات، بين جدلية القبول والرفض لواقع يتشكل، ومخاض عسير عاشته الدولة الوطنية في الجزائر، هذه الدولة الجديدة التي تحتاج إلى تأسيس مؤسساتي، ينطلق في رؤياه من خلفيات تارخية وثقافية تمت بصله إلى الانتماء الحضاري والجغرافي، وتتفاعل مع محيطها الدولي من خلال وضعها الجيوسياسي.

الهوامش

1. عبد القادر رابحي، النص والتقعيد، ج1، دار الغرب للنشر والتوزيع،2003 الجزائر، ص97.
2. على ملاحي، شعرية السبعينات في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986 الجزائر، ص 43.
3. نماذج من الشعر الجزائري المعاصر، مجلة آمال، مجلة أدبية ثقافية تصدرها وزارة الثقافة، عدد خاص، شعر مابعد الاستقلال الجزائر، 1982، ص22.21
4. قادة عقاق ، دلالة المدينة في الشعر العربي المعاصر، دراسة لإشكالية التلقي الجمالي للمكان، إتحاد الكتاب العرب، دمشق 2001، ص270.

5. مصطفى محمد الغماري، :ديوانه، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1985، الجزائر، ص120.
6. عبد القادر رابحي ، النص والتقعيد ، ص99.
7 . محمد أبو القاسم خمار. الحرف الضوء ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979،الجزائر ، ص 99.
8. فتيحة كحلوش .بيلاغة المكان ، قراءة في مكانية النص الشعري، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، بيروت2008، لبنان، ص147.
9 .حسين حبش، مكائد الأمكنة، الحوار المتمدن، صحيفة إليكترونية يومية،عدد 1594، 2006/6/27 صفحة الويب: www.ahewar.org
10. أحمد حمدي . قائمة المغضوب عليهم ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1988. ص 28
11. أبو القاسم سعد الله، الزمن الأخضر، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985، ص 371.
12. المصدر السابق، ص371.
13 . الأخضر بركه، الريف في الشعر العربي الحديث، ، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر،2002. ص33
14. محمد بلقاسم خمار، الحرف الضوء، ص134.
15. أحمد الطيب معاش ، الترانيم وأغاني الخيام، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر 1986، ص182.
16 . محمد بلقاسم خمار، الحرف الضوء، ص200.
17 . علي ملاحي ،. أشواق مزمنة، ص 60.
18. محمد الأخضر السائحي همسات وصرخات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر ، ص 147.

19. أحمد دوغان شخصيات من الأدب الجزائري المعاصر، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، 1989، ص .157
20. أحمد حمدي. قائمة المغضوب عليهم. ص8.
21. يوسف رزوقة. عز الدين المناصرة شاعر المكان الفلسطيني الأول ، دار المجدلاوي، عمان الاردن 2008، ص154 .
22. عبد العالي رزاقي، الحب في درجة الصفر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1977 ، ص17.18.